شعراء النصرانية بعد الاسلام

القسم الرابع

شعراء الاجيال الاخيرة من القرن الرابع عشر الى التاسع عشر

للاب لويس شيخو اليسوعي

١ سليمان الغزّي (تابع)

﴿ ديوانهُ ﴾ هو اوّل ديوان نصراني بَحْت فبانَّ قصائدهُ كلّها لا تحتوي غير المعتقدات المسيحيَّة والمعاني المسيحيَّة والاشارات المسيحيَّة بحيث يجوز ان يقال انهُ هو اوّل شاعر نصراني ديني لهُ التقدُّم على كل الذين ظهروا بعد ذلك في القرون التالية. والغالب على القصائد الوصف والمديح والزهد وبعض الرثاء.

والقصائد المذكورة تنيف عن السبعين ومعظمها بين الاربعين والخمسين بيتاً ومنها ما يزيد عن السبعين بل لهُ ارجوزة انية تنيف على مائتي بيت يكاد المجموع يبلغ قريباً من ثلثة آلاف بيت من كل بحور الشعر. وفي رأس كل قصيدة دعاء من الناسخ كألوف عادة كتبة الدواوين الاسلاميَّة فتارة يطلب لهُ الغفران وتارة يترحَّم عليه وحيناً يدعو لهُ بالخير كقوله: «قدَّس الله روحهُ ونوَّر ضريحهُ» وكقولهِ: «زاد الله برَّهُ واجزل ثوابهُ» او «عظَّم الله اجرهُ» او «اضاء الله رمسهُ» او «آنس الله وحدتهُ» او «رضي الله عنهُ» او «سبَّح الله نفسهُ» الى غير ذلك من الادعية الدالَّة على اعتبار الكتبة لهذا الشاعر.

واذا أعملنا بصر الانتقاد في شعر سليمان الغزّي وجب ان نفرق بين نظمهِ ومعانيهِ. فانَّ نظم الشاعر لا يخلو من ضعف سواء كان في التركيب ام في الجوازات الشعريَّة فانَّ في قصائدهِ اغلاطاً نحويَّة ومسوغات شعريَّة يتجاوز فيها الحدود عن سواهُ

من الشعراء . ولعلّ بعض هذه الاغلاط اللغويّة والخلل في ضبط الاوزان الشعريّة قد تسرّب الى ديوانهِ بفعل الناسخين او قل بالحري الماسخين . فمنها ما يصعب اصلاحُها . الّا انّ هناك من الشوائب ما لا يمكن نسبتهُ لغيرهِ لغةً ونظماً فيُسكن المتحرّك ويحرّك الساكن ويصرف ما لا ينصرف ويمنع المعرَب من اعرابهِ ويجمع الفعل مع ظهور فاعلهِ وينصب المرفوع ويرفع المنصوب ويبدل همزة الوصل بهمزة القطع ويعكس الى غير ذلك ممّا يدلُّ على انهُ لم يدقّق في ضبط اللغة وفي لزوم قوانين العروض

على انّنا لا يمكننا ان ننظم شعرهُ في جملة الشعر العامّي فانّهُ اعلى منهُ طبقةً واضبط وزناً

امّا المعاني فانّ شاعرنا يجاري فيها كبار الشعراء فانهُ يحسن إبراز افكارهِ بصورة لطيفة ويعرضها بالتشابيه البديعة والتعابير الرائقة ويتفنن بالمعاني فيخرجها على ضروب شتى تزيدها رقّةً وتأثيراً في القلوب . وها نحن نختار بعض المقاطيع من شعرهِ ليقف القرّاء على محاسنهِ . ومن ديوانهِ في مكتبتنا الشرقيّة خمس نُسخ ترقى اقدمها الى نحو القرن الخامس عشر قد سقط اوراق قليلة من اوّلها وآخرها . وكُتبت الثانية والثالثة في القرن السابع عشر . والرابعة تاريخها السنة ٧٢١٢ لآدم (١٧٠٤م) بيد الشماس عيسى ابن جرجس عازريّة . والخامسة حديثة العهد . فمن قولهِ الذي افتتح بهِ احدى نسخنا وصفهُ للايمان الحقّ وتلبسهِ ظاهراً وباطناً (من البسيط) :

ما كلُّ معتمدٍ بالماء نصراني ... غيرَ اعتمادِ حياةِ العالَمِ الثاني (١
وبالمسيح شعوبُ الارض إعتمدوا ... وتافقَ البعضُ منهم بعدَ ايمانِ
صاروا كاعضاء جسمٍ في طبيعتهِ ... منهم مُعينٌ ومنهم غيرُ أعوانِ
كم بطركٍ غير محمودٍ بخدمتهِ ... واسقفٍ غيرِ مغبوطٍ ومطرانِ
من الاراطقةِ المشهورِ مَيلُهم ... عن الصواب الى زُورٍ وبُهتانِ
قد فضّل اللهُ عنهم بيعةً جُمعت ... احجارُها من اقاليمٍ وبلدانِ (٢

١) يريد ان معموديّة الماء لا تكفي للخلاص دون معموديّة الروح بقداسة الحياة
٢) يريد بالبيعة الكنيسة الحقيقيّة وبأحجارها مؤمنيها

بَنَى لها الحقُّ بُنْيانًا فارتفعتْ ... الى السماء بأعمادٍ واركانِ
من الزَّبَرْجد في ترتيبهِ نُظمتْ ... ما بينَ دُرٍّ وياقوتٍ ومَرْجانِ
اساسُها صخرةُ الايمانِ راسخةٌ ... من تحتِ ذاتِ اساطينٍ وحيطانِ
وكلُّ ذي جسدٍ يحلو لناظرهِ ... اذا تراءى باجناسٍ وألوانِ (١
فالرومُ والروسُ والافرنجُ حلُّوا بقُـ ... ـرب الهندِ والخُوزِ والأبخازِ واللانِ (٢
والارمنيُّون والبَشْناك وافَقَهم ... اهلُ الجزيرة اعني اهلَ حرَّانِ
وارضُ شيرازَ والاهوازِ فاتَّفقوا ... مع العراقِ الى اقصى خراسانِ
من مطلعِ الشمس حتى حدِّ مغربها ... الى الفراتِ وسَيْحانٍ وجَيْحانِ (٣
بيضٌ وشُقْرٌ وسُمْرٌ في كنائسهم ... قد سبَّحوا الله مع صُفْرٍ وسُودانِ
فكلُّ قومٍ الى دينِ المسيحِ أتوا ... وبالهدى رَبِحوا من بعدِ خُسرانِ
شعوبُ شعبٍ لكلٍّ منهم لغةٌ ... تبلبلت من لسانٍ كان سريانِي (٤
وكان منطقُ رُسلِ الله قد خُلقوا ... قبلَ الرسالةِ بالانجيلِ عبرانِي
صارت لكلِّ رسولٍ منهمُ لغةٌ ... جميلةٌ ذاتُ إسنادٍ وبنيانِ
ولم يُجابوا بتعليمٍ وما عرضوا ... ايمانهم في الورى إلَّا ببرهانِ
لذلك افترقوا في نشرِ دعوتهم ... ولم يخافوا جميعاً كيدَ شيطانِ

---

١) اي انَّ الكنيسة الواحدة تقوم بشعوب مختلفة بالجنس واللون واللغة مع اشتراكهم بالايمان الواحد ٢) الخوز اهل خوزستان في بلاد فارس. والابخاز جيلٌ من الناس في بلاد الكرج. واللان اهل بولونية
٣) سيحان وجيحان نهران كبيران في تركستان
٤) زعم بعض القدماء انَّ اللغة السريانيَّة كانت لغة الابوين الاولين

حتى اذا كملت لله خدمتهم ... ناموا فكم ايقضوا نوماً اليقظان (١

وقام في عصبة الشيطان بعدهم ... مذاهبٌ ذاتُ إشراكٍ وطغيان

فقال أريوسُ نُطقُ الله خالقنا ... اعني القديمَ حديثٌ زائلٌ فانِ (٢

وقال مكدونيوسُ الروحُ ليس له ... اقنومٌ في عددٍ اذ كان جسماني (٣

وقال نسطور ناسوتُ المسيح على ... لاهوتهِ جوهران او قنومانِ (٤

وقال يعقوب قولُ الله صحّ لنا ... من ذات اقنومَ لا من ذات ثُنيانِ (٥

الى ان ختم بما ذكرناهُ سابقاً

هذي مذاهبُ اقوام لِكفرهمُ ... ضلّوا الهدى من طريق شبهَ عميانِ

فالفضلُ للأرثذكسيين (٦ انهمُ ... تمذهبوا مذهباً في الله حقّاني

وينسب في هذه القصيدة لابن الله قبل تجسّده ما صنعهُ من العجائب مع بني اسرائيل اذ خلّصهم من ظلم فرعون وقادهم الى ارض الميعاد ثمّ يُلحقها بعجائبهِ بعد تجسّده فقال :

فهو المخلّص لإسرائيلَ من رجلٍ ... عاداهُ في ظلمهِ موسى بن عمرانِ

---

١) اراد بنومهم موتهم في سبيل المسيح . اما نوم اليقظان فاشارة الى الخاطئ العائش في خطيئتهِ

٢) يريد بالنطق السيد المسيح كلمة الله الذي زعم اريوس انهُ مخلوق فحرمتهُ الكنيسة في المجمع النيقاوي

٣) كان ضلال مكدونيوس بقولهِ انّ الروح القدس مخلوق من الابن وليس بإله فحرمهُ المجمع المسكوني الثاني

٤) جعل نسطور في السيد المسيح اقنومين احدهما انساني سبق بولادهِ والآخر الهي اقترن بالانسان ومن ثمّ نكر أمومة مريم الالهيّة فحرمهُ مجمع افسس

٥) هو يعقوب البرادعي القائل بانّ في المسيح طبيعةً واحدة كما هو اقنوم واحد وهذه البدعة حُرمت في المجمع الخلقيدوني

٦) ليس معنى الارثذكسيين هنا كنيسةً خاصة بل الكنيسة الحقيقيّة المتمسكة الرأي المبنيّة على الصخرة البطرسيّة . والكنيسة الرومانيّة تُدعى بالكنيسة الاورثذكسيّة في صلوات التقديس

وهو الذي من مياهِ البحر أخرجهُ جَهْرًا وانزلهُ في ارض فارانِ
وهو الذي بسحاب الغيم ظلّلهُ فلم تضرّ لهُ شمسٌ بأبدانِ
وهو الذي أنبع الأمواهَ من حجرٍ صخرٍ ليشرَبَ منهُ كلُّ عطشانِ
وهو الذي إصطفى هارونَ مفتقرًا مآثمَ الشعبِ في تقريبِ قربانِ
وهو المؤدّي لإيشوعَ ابنِ نونٍ الى ارض الوراثةِ من أعمالِ عمّانِ
وهو الذي ردّ قرنَ الشمس في مغربٍ حتى تمكّن من تهديم سيرانِ(١
وهو الذي قد بنى صهيونَ بيعتَهُ قدسًا فتمّ بناها من سليمانِ
وهو الذي بكلام الحق أوحى بان يقيمَ فيها ملوكًا ذاتَ تيجانِ
وهو الذي لشعوب الارض أسكنها فقادهم نحوها من غير إنهانِ
وهو الذي بطلاء الطين ابرأ عَيْنَيْ م أكمهٍ فشفي في عينِ سلوانِ
وهو الذي طهّر البرصَ الأولى طلبوا منهُ شفاءً فنالوا طُهرَ ابدانِ
وهو الذي أشبع الآلافَ حين أتوا خبزًا واكفاهمُ من خمس رُغفانِ
وهو الذي مسّتِ الإمرأةُ بُردَتَهُ فعُوفيت من نزيفِ من دمٍ قانِ
وهو الذي أمر المخلوع يحملُ ما قد كان يعلو عليهِ فوق أمتانِ(٢
وهو الذي ضربَ الجانَ الأولى علقوا بالمجدليّةِ ربُّ الإنس والجانِ
وهو الذي حوّل الماءَ يومَ عُرسهمُ خمرًا وريحتُهُ أذكى من الّبانِ
وهو الذي سار فوق البحر منطلقاً يمشي على البحر اكراماً لسمعانِ

١) جمع بين آيتين ليشوع لمّا اوقف الشمس في سيرها ثمّ لمّا اخرب اسوار اريحا بابراق الكهنة . السيران جمع سور ٢) جمع متن اي كتف

وهو الذي يوم سبت قال: عازرُ قم فقام مشتملاً اثواب اكفانِ
وهو الذي منح الغفران خاطئةً ألقت على قدميهِ طيبَ ادهانِ
وهو الذي غسّل الأقدامَ متّضعاً لرسلهِ كحكيمٍ صالحِ الشانِ
وهو الذي من جحيم النار أنقذنا بعد الهلاك بإثم الوالدِ الجاني

الى ان ختم بقولهِ:

فسبّحوا اللهَ يا اولادَ بيعتهِ ومجّدوا بمزاميرٍ وألحانِ
ثمّ اطلبوا منهُ للمسكينِ قائلها أجرًا يؤولُ الى فوزٍ بغفرانِ

ومن محاسن قولهِ وصفهُ لزوال العالم وتحريضهُ على التوبة (من البسيط):

لا يعجبنّك من يصفو لهُ الزمنُ فالمرء عند صفاء الدّهر يمتحنُ
وارغبْ بنفسك عمّا ليس ينفعُها فلا سرورٌ لها يبقى ولا حزنُ
أما ترى حركاتِ الدهرِ دائرةً لا تستقرُّ ولا يُبطي بها وهنُ
يُباينُ البعضُ بعضاً من كواكبها ويدنو بعضُها من بعضٍ فيقترنُ
كم فرّقت شملَ قومٍ بعد وَصلهمُ وجمّعت شمل قومٍ غيرهم فدنوا
كم من عظيم جليلٍ من ذوي ثقةٍ لهُ المهابةُ والافضالُ والمننُ
اتى الزمانُ عليهِ في تصرّفهِ فأعدمَ الملكُ والسلطانُ والسّكنُ
كفى بهم أنهم عن ربعهم رحلوا الى القبور كقوم قبلهم ظعنوا
والترب يحجبُ جسماً عزّ مطلبهُ ولو تمزّقَ عن اعضائهِ الكفنُ
ويأكل الدودُ ابداناً منعّمةً ولا يعزُّ عليها منظرٌ حسنُ

ومن محاسن اقواله ما انشدهُ في قيامة السيد المسيح (من الكامل) :

زالت شكوكُ الناسِ والأوهامُ ... في البعثِ اذ قامَ المسيحُ فقاموا
والحقّ يشهد أنهم من آدمٍ ... ماتوا وبادت في التراب عظامُ
حتى تجسَّد للخلاص مبشِّرًا ... بحياتنا فحيَتْ لهُ الأيامُ
هذا الذي أحيا لنا لاهوتُهُ ... ناسوتَهُ فالموتُ منهُ منامُ
والقبرُ مفتوحٌ تقدَّس باسمهِ ... وعلا على كلِّ البلاد الشامُ (١)
يا قبرُ ابن يسوعُ هل وصلوا الى ... ما دبَّروهُ بموتهِ الحكَّامُ
يا قبرُ هل بلغَ العداةُ مُرادَهم ... ام فاتَهم بحسابهم ما راموا
يا قبرُ خفَّ لك الالهُ كرامةً ... وسقاك من كأس الحياةِ غمامُ
يا قبرُ نورُ اللهِ فيك مشعشعٌ ... جندُ السماء لمجدهِ خدَّامُ
يا قبرُ انك في القيامةِ شاهدٌ ... عدلٌ لاجلك قامتِ الاجسامُ
هذا الذي وهبَ الحياةَ لآدمٍ ... فتحيَّرت لصفاتهِ الأفهامُ
لو لم يَمُتْ لَما انقضَتْ نَوَراتهم ... وتعطَّلت بفروضها الأحكامُ
أنتَ الإمام لمن زكَتْ أفعالُهُ ... والحقُّ فيما قد تقولُ إمامُ
طوبى لمعتمدينَ باسمكَ ثمَّ مَنْ ... بسطوا يدَيهم في الصلاةِ وصاموا
طوبى لمن هربوا اليك وخلَّفوا ... اموالَهم للوارثين وهاموا
طوبى لمن حملوا كما أمرتَهم ... صُلبانَهم فهمُ تلبك كرامُ

١) بعدَ الشاعر القدسَ الشريف من الشام كما ترى

لولا الامانةُ لم تصحَّ ظنونهم أبدًا ولم تُصْدِقْهمُ الأحلامُ
قرَّبتُ لحمَ الذبيحِ عن آثامنا خبزًا وصار لنا الحياةَ مُدامُ
فتقرَّبوهُ يا بني ميراثِهِ فعساها تَسْقطُ عنكمُ الآثامُ
وادعوا لمن قال القصيدَةَ انهُ رجلٌ يحقُّ لمثلهِ الإكرامُ

وقد احسن في وصف حدثان الدهر فقال (من البسيط):

حَبْلُ الوِصالِ من الأعوانِ منصرمُ وكلُّ ما بنتِ الأيامُ منهدمُ
يا دهرُ رُدَّ الى جسمي شبيبتَهُ فقد تعالى عليَّ الشَّيْبُ والهرَمُ
أبكيتني بعد ما أضحكتني زمناً والناسُ لابُدَّ أن يبكوا ويبتسموا
وساكنو هذه الدُّنيا على وَجَلٍ من المنيَّةِ والموجودُ منعدمُ
دنياهمُ اخبرتنا ما الذي فعلتْ قد شتَّتتْ شملهم بادوا وما سَلِموا
قد كنتُ ابكي على توديعهم أسفاً فارتجي يومَ لُقياهم اذا قَدِموا
واكتمُ الدَّمع خوفاً للفراقِ وما أطيقُ كُتمانَ دمعي وهوَ منسجمُ
إني لأعجب يومَ البَيْنِ من جَلَدي والنارُ في باطنِ الاحشاءِ تضطرمُ
يا نفسِ قومي بخوفِ اللهِ تنتفعي انَّ الأُلى كفروا بالحقِّ قد أثموا

ومن طريف قولهِ ما وصف بهِ الايمان المسيحي (من الطويل):

بمعرفةِ الايمانِ أثبتُ حُجَّتي وتدنو من الآبِ القديمِ بنوَّتي (١

---

١) يريد ان المسيحيَّ بالمعموديَّة ينال شرف البنوَّة الالهيَّة

بمعرفةِ الايمان عُمِّدتُ كالذي ... بإعمادهِ بالماء طيّر حُلّتي (١
بمعرفة الايمان أسمعُ منطقاً ... لانجيلهِ من قُدْس صهيونَ تَبْعتي
بمعرفةِ الايمان أمحَضُ وُدَّ مَنْ ... يجاهرُ في بُغضي ويبغي منيّتي
بمعرفة الايمان أحفظُ جانبي ... وادعو المساكين الاصاغرَ اخوتي
ومَن لطم الخدَّ اليمين أُدِرْ لهُ ... شمالي ولم أحقِدْ عليهِ بلطمتي
وأترك عن ذكر القبيح تَغافلا ... لقومٍ أرادوا بالقبيح أذيّتي
بمعرفةِ الايمان أخلعُ زينتي ... إذا كان ثوب الكِبْر يوجب سقطتي
وألبَسُ ثوب الإتضاع وذِلّهُ ... ليُوجب يوم البَعْث عزّي ورفعتي
بمعرفة الايمان أُطعِم جائعاً ... وأكسُو لِعُريان إذا شاء كسْوتي
ولمغتربا آوي من البرد منزلي ... وأُكرمهم في حال ضعفي وقوّتي
بمعرفة الايمان أصبح باذلاً ... لكلّ عليل أو حبيس معونتي

الى ان قال مخاطباً السيد المسيح:

فيا سيّدي أنت الطبيبُ لعلّتي ... وموجبُ أسبابَ الحياةِ لسَقْطتي
كتابك ناموسي وجسمُك هيكلي ... ووجهُكَ في أعلى السماواتِ قِبْلتي
وفيك اذا صلّيتُ أسجدُ موقناً ... بانّ إلاهَ العرش يسمَعُ دعوتي
ويقبلُ قرباني بك اللهُ خالقي ... ويُصلح أحوالي بموتي وعيشتي

وقال يذكر تشتّت التبرّئات بمجيء المسيح من قصيدة (من الكامل):

---

١) يشير الى عماد السيد المسيح الذي قبل عماد التوبة من يد يوحنّا المعمدان كي يعطينا العماد المطهّر من الخطايا.

وتجسّم النطقُ القديمُ تجسّماً (١ تاريخُهُ وحسابُهُ محسوبُ
سبعون سابوعاً سنيناً أُحصيَتْ من دانيالَ ودانيالُ لبيبُ
ولقد أتى داوودُ في ميلادهِ قولاً عن الربّ القديم ينوبُ
إذْ قال: قال الربُّ أنت اليومَ لي م ابنٌ وإن مالَتْ عليك شعوبُ
ويقول شعيا تحبلُ العذرا بمن للناس بالميراثِ منهُ نصيبُ
ولقد تنبّأ عن يهوذا مُعلناً بالحقّ عنهُ شيخُهُ يعقوبُ
إذ قال إنّ المُلكَ منهُ ينقضي والانبيا إذا أتى المحبوبُ
يعني مسيحاً قام مَلكاً في السما وعدوُّهُ بصليبهِ مصلوبُ
هذا الذي إنجيلُهُ لشعوبهِ بالحقّ من ذاء القلوب طبيبُ
وبموتهِ أحيا طبيعةَ آدمٍ إذ كان آدمُ للخطاء رَكوبُ
يا ربِّ مُنّا بهيكل قدسهِ للدهر أنك للدعاء مُجيبُ

وقد قال في مديح العذراء مريم ووصف بشارتها (من الوافر):

سما شرفٌ لمريمَ في العذارى وفخرٌ في جميع الاصفياء
فأمستْ في الدهور بلا مثالٍ بتولاً وهي امٌّ في سَواء
أتاها بالبشارةِ جبرئيلٌ ملاكُ السرّ في حُلَل البهاء
فقال: حييتِ مريمُ لا تُراعي مباركةٌ تكوني في النساء
بحقّ تحبلين الآن بابنٍ هو ابنٌ لعليّ الكبرياء

(١ اراد بالنطق كلمة الله الازليّة التي حلّت فينا وصارت جسداً

يكونُ لهُ على يعقوبَ ملكٌ ... الى دهر الدهورِ بلا فناء
فقالت الملاك : وكيف هذا ... وما بشرٌ تقرَّب من ردائي
فقال : عليك روح الله يأتي ... وقوَّتهُ تحلُّ من العلاء
ومَن تلدينَ فالقدُّوسَ يُدعى ... وإبنَ الله يُسمَى في الملإ
فقالت : ها أنا أمةٌ لربي ... فأقبَلُ ما اتيتَ بلا إباء
فصدَّقتِ البشارةَ بابتهاجٍ ... وتمَّ بذاك قولُ الانبياء
ولم يُخصَصْ بهذا الأمر إلَّا ... لمريمَ وهي أتقى الاتقياء
فشكرٌ للعلي المولى وفخرٌ ... بأمِّ النور والدةِ الضياء
فانَّ لنا بها في الارض مجدًا ... وما بين الملائكِ في السماء
فنحن الخلقُ كان بنا سقامٌ ... فاضحتْ مريمٌ سببَ الشفاء
أتتنا بالخلاص فأنقذتنا ... بذاك من الخطيئةِ والبلاء
وكان لآدمٍ من قبلُ وعدٌ ... فمَنَّ على يديها بالوفاء
فأهدوها بلا ملَلٍ سلاماً ... جديدًا في الصباح وفي المساء
تولَّاها وليٌّ وهو يرجو ... شفاعتها غدًا عند القضاء

فترى من هذه الامثلة انَّ سليمان القرّي كان مشبعاً من العلوم الدينيَّة عارفاً معرفةً تامَّة عقائد الكنيسة وآدابها وتاريخها . وكان في وسعنا ان ننقل عنهُ قصائد كثيرة بهذا المعنى لولا خوف الاطالة المملَّة . وفي ما ذكرنا ما يكفي لبيان فضلهِ كشاعر مُجيد على الرغم عمَّا سوَّغ لنفسهِ من الاجازات الشعريَّة

(الباقية)